الفصل الأول

المسيحية والمسيحيون في القرآن الكريم والسنة النبوية

الإسلام والتعددية

من الأمور المقررة فى القرآن الكريم اعترافه بالتعددية، سواء أكانت تعددية عرقية أم دينية أم غير ذلك، فنرى فى سورة الحجرات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

ونرى فى سورة المائدة:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[2].

ويقول فى سورة الحج:

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾[3].

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) سورة المائدة الآية ٤٨.

(٣) سورة الحج الآية ٦٧.

والأمة كما يقول معجم ألفاظ القرآن الكريم هى «كل جماعة يجمعهم أمر ما... والأمة الدين، والأمة الحين[1]» معنى هذا أن الإسلام يقر التعددية، بل يجعلها أساسا للتعرف بين البشر. وأساس الابتلاء (الاختبار) فى الدنيا. فى ضوء هذا الاعتراف بالتعددية نتعرف إلى موقف الإسلام من المسيحيين باعتبارهم أصحاب ديانة سابقة عليه.

دلالة الألفاظ

لم ترد كلمة «مسيحيون» فى القرآن الكريم، بل وردت كلمة «نصارى» كما وردت كلمة «الأنصار» للدلالة على أتباع الدين الذى جاء به المسيح عليه السلام، وهذا يبين أن الدين الإسلامى يطلق على أنصار المسيح الكلمة نفسها التى يطلقها على أنصار النبى محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[2].

مكانة النصارى فى القرآن

وقد حدد القرآن الكريم مكانة النصارى بالنسبة للمسلمين بقوله:

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ﴾[3].

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم، (إعداد مجمع اللغة العربية) القاهرة، ١٩٧٢، ج١، ص٥٣.

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٢.

(٣) سورة المائدة الآية ٨٢.

أى أن المسيحيين بحكم القرآن هم أقرب الناس مودة للمسلمين.

ويمدح القرآن الكريم النصارى بقوله:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1].

ويقول المفسرون فى شرح لا يستكبرون إن المقصود بها هو أن المسيحيين لا يستكبرون على اتباع الحق.

لا إكراه فى الدين

يقرر القرآن الكريم القاعدة الذهبية لمجادلة أهل الكتاب:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[2].

ويمنع إكراههم على الإسلام:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[3].

حدود العلاقة

ويبيح للمسلمين طعامهم، ويبيح لهم طعام المسلمين ليؤكد على معانى الترابط والود الاجتماعيين:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة الآية ٨٢.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٦.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٤) سورة المائدة الآية ٥.

ويسمى القرآن المسيحيين بأهل الكتاب. وإذا عاهدوا المسلمين على العيش معهم فى سلام كانوا أهل ذمة. لا تجوز حربهم، ويجب على المسلمين صيانة دمائهم وأموالهم والدفاع عنهم ضد أى عدوان خارجى.

ولايكتمل إسلام المسلم إلا إذا آمن بالإنجيل وبأن المسيح رسول الله، طبقا للحديث النبوى، ففى الحديث النبوى أن جبريل سأل النبى صلى الله عليه وسلم:

- ما الإيمان؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره».

وفى الحديث النبوى يشدد النبى صلى الله عليه وسلم على ضرورة حسن معاملة أهل الذمة من المسيحيين واليهود فيقول:

«من قتل نفسا معَاهدا (أى بينه وبين المسلمين عهد) لم يرَح (يشم) رائحة الجنة. وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما[1]».

النصارى حموا الدعوة الإسلامية

وقد جاء فى السيرة النبوية ما يبين لنا دور النصارى فى حماية الدعوة الإسلامية فى بدايتها من أعدائها. ففى العام الخامس للبعثة النبوية وجد النبى صلى الله عليه وسلم أن أذى قريش يشتد على أصحابه فقال لهم «لوخرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه» واستجاب المسلمون

(١) ورد فى صحيح البخارى.

المستضعفون لنصيحة نبيهم، وخرج عدد قليل منهم سرا بحيث لا يعرف بـه أحد، وكان من بين هؤلاء المهاجرين عثمان بن عفان رضى الله عنه وزوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستقل الجمع سفينة من ميناء يقال له الشُعيبة، وتوجهوا إلى الحبشة.

كان ذلك فى رجب، وبقى المهاجرون فى الحبشة شهور شعبان ورمضان، ثم سمعوا أن صلحا وقع بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قريش فعادوا فى شوال، لكنهم وجدوا أن ما أشيع عن الصلح غير صحيح، وعاشوا مرة أخرى يعانون من الاضطهاد فقرروا العودة للحبشـة، وكان العدد هذه المرة كبـيرا يبلغ حـوالى مئة نفس، ثلاثة وثمانون رجلا وثمانى عشـرة امرأة، من بينهم أيضا عثمان بن عفان وزوجه، ابنة النبى صلى الله عليه وسلم.

أثار هذا العدد الكبير غيظ قريش فقررت ألا تقف صامتة، وأرسـلت خلـف المهاجرين رجلين هما عبد الله بـن أبى ربيعة وعمرو بن العاص (قبل إسلامهما)، وحملتهما بالهدايا للنجاشى ولكل من حوله، وما لبثا أن وصلا إلى بلاد النجاشـى والتقيا به بعد أن حرضا رجاله على هؤلاء القادمين إلى بلادهم، لكن الرجل العادل رفض أن يتخذ أى قرار دون أن يسـمع للطرف الآخر، وبعث فدعاهم إليه، وتقدم جعفر بن أبى طالب ليتحدث عنهم.

قال جعفر للنجاشى: «كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا

نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشى: هل معك مما جاء به عن الله شىء؟

قال جعفر: نعم.

وقرأ عليه صدر (كهيعص)، وتقول الرواية أن النجاشى بكى حين سمع الرجل يتلو القرآن، ثم قال: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.

واستدار إلى رسولى قريش ليبلغهما رأيه، قال لهما: انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما».

رأى عمرو بن العاص وهو داهية العرب ألا يستسلم للهزيمة فقرر أن يقوم بمحاولة أخرى، ولم يطلب هذه المرة تسليم المهاجرين، بل قال للنجاشى المسيحى ما يتعلق بنبيه حتى يفسد العلاقة بينه وبين الفارين إلى بلاده، فماذا قال له؟

قـال: «أيها الملك، إنهم يقولون فى عيســى بــن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه».

وأرسل النجاشى فاستدعى المهاجرين مرة أخرى. وسألهم عما يقولونه فى عيسى عليه السلام، وأجابه الناس برأى الإسلام فى المسيح، قالوا: «هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

فقال النجاشــى معلقا على ما سمع وهو يشير لعود يمسك به: «والله ما عدا عيســى بن مريم ما قلت هذا العود» أى أن ما قاله المســلمون لم يبتعد عن حقيقة عيسى بن مريم مسافة كبيرة[1].

ويعلق الشــيخ محمد الغزالى فى كتابه الرائع «فقه السيرة» على قول النجاشى بقوله: «اختلف النصارى قديما فى طبيعة المسيح على مذاهب شــتى. وكان هناك مذهب يقوم على اعتباره بشــرا مرســلا، وليس إلها ولا نــدا لله. ولا يزال فى الغرب المســيحى أنــاس يعتنقون هذا المذهب الموحد. ونحن نعتقد أن نجاشى الحبشة على هذا الرأى[2]...».

وســواء أكان النجاشى كما قال الشــيخ محمد الغزالى رحمه الله وهو احتمال كبير، أو كان مجرد رجل واســع الأفق يؤمن بالتعددية، أو قال ذلك لمجرد أن يكف أصحابه عن نزلاء بلده من أصحاب الدين الآخر، فمن المؤكد أنه لم يطرد المســلمين من أرضه. وظل المسلمون هناك حوالى خمســة عشــر عاما. فقد رجع جعفر بن أبى طالب وأصحابه فى العام

(١) عبد الملك بن هشام: سيرة ابن هشام، القاهرة، ١٩٧٤، ج ٢، ص ١٠٤.
(٢) محمد الغزالى: فقه السيرة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١٠٤.

السابع للهجرة، ومعنى هذا أن دور النجاشى كان عظيما واستمر طويلا دون أن يضيق بمن دخلوا بلاده واستمروا بها.

وتذكر كتب السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل إلى النجاشى يخطب منه أم حبيبة (واسمها: رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب) فزوّجها للنبى ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بالحبشة، وأصدقها (أى دفع لها صداقا) النجاشى عن النبى أربعمائة دينار، وبعثها مع شرحبيل بن حسنة. وهذا الحادث يبين لنا طبيعة العلاقة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين هذا الملك المسيحى الذى احتضن المسلمين فى أرضه فى وقت شديد الخطر.

وفى السيرة النبوية المزيد من الشواهد التى تبين العلاقة الطيبة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين المسيحيين، فمن المؤكد أنه لم يحاربهم كما حارب اليهود، وأنهم لم يكيدوا له كما كاد له اليهود.

فى ضيافة عداس

ومن اللفتات الطيبة التى تبين موقف المسيحيين من النبى صلى الله عليه وسلم ما حدث له فى الطائف حين ذهب لدعوة أهلها للإسلام، فقد قالوا له: «اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض» وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحجارة، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة وشيبة ابنى ربيعة، فلما دخل الحائط (البستان) رجعوا عنه. فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عداس فقالا: «خذ قِطفا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب به إلى هذا الرجل، فقل له يأكل منه».

فأقبل عداس بالطبق حتى وضعه بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال له: «كل».

فلما وضع الرسول يده فى الطبق قال: «بسم الله» ثم أكل فنظر عداس فى وجهه وقال: «والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد».

فقال له صلى الله عليه وسلم: «من أى البلاد أنت؟ وما دينك يا عداس؟».

فقال: «نصرانى، وأنا من أهل نينوى».

فقال صلى الله عليه وسلم: «أنت من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى؟».

فقال عداس: «وما يدريك ما يونس بن متّى؟ فإنى خرجت والله من نينوى ومافيها عشرة يعرفون ما متّى! فمن أين عرفت ابن متى وأنت أمى وفى أمة أمية؟».

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذلك أخى كان نبيا وأنا نبى أمى».

فقام عداس وأكب على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه، فقال أحد الأخوين عتبة وشيبة للآخر: «أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس قال له أحدهما: «ويلك، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟».

فقال له: «ياسيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى».

فقال: «ويحك يا عداس ليصرفنك عن دينك وليفتننك عن نصرانيتك؛ فإنه رجل خدّاع، ودينك أفضل من دينه»[1]

عهد النبى للنصارى

ولعل آخر ما نختتم به هذا الجزء من حديثنا هو الوقوف عند قصة المباهلة، فقد كان المسيحيون يدخلون مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مناقشات وجدل حول أوجه الخلاف بين عقائدهم وماجاء به الإسلام، لكن المناقشات مهما طالت كانت تلتزم باحترام حق كل طرف فى أن يتمسك بدينه. وتنتهى دون عنف. وتروى لنا السيرة قصة المناقشة التى دارت بين النبى ونصارى نجران، وهى واحدة من أطول قصص المناقشة بين النبى ونصارى الجزيرة العربية. وفى نهاية المناقشة قال النبى صلى الله عليه وسلم للطرف الآخر كلاما سجله لنا القرآن فى سورة آل عمران:

﴿ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[2].

وقد رفض المسيحيون الدخول فى المباهلة، وانتهت القصة بالصلح، وكتب لهم النبى صلى الله عليه وسلم كتابا نرى ضرورة أن نورد جزءا منه لما له من دلالة:

---

(١) رفاعة الطهطاوى: نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز. (تحقيق: عبد الرحمن حسن محمود، وفاروق حامد محمد) القاهرة، ٢٠٠٦، ١٣٦.

(٢) سورة آل عمران الآية ٦١.

«لنصارى نجران جوار الله وذمة محمد النبى صلى الله عليه وسلم، على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم. وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم وتبعهم. وأن لا يغيروا مما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا ملتهم، ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم ريبة ولا دم جاهلية، ولا يحشرون- يكلفون بجهاد - ولا يعشرون - يكلفون بزكاة - ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقا فبينهم النَّصَف (الإنصاف) غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا فذمتى منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر.

وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأتى الله بأمره، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم»[1].

مما سبق نرى كيف نظر الإسلام للمسيحيين وكيف كانت العلاقة طيبة بين نبى الإسلام وبين نصارى عصره، وكيف كان المسيحيون حماية للمسلمين فى مواجهة كفر قريش واضطهادهم للنبى وأتباعه.

❑❑❑

(١) فقه السيرة: ص ٣٦٨.